١٤ ـ بين القاهرة وطوس

من بغداد إلى الاسكندرية

للدكتور عبد الوهاب عزام

أقمنا ببغداد أربعة أيام ، فأحدثنا العهد ببعض مشاهدها ، وزرنا مرقد الملك الشهيد فيصل . رأينا في العراء على مقربة من دار البرلمان مقصورة من الخشب ترتفع عن الأرض درجات ، وعلى بابها جندي شاهر السلاح . ففتح لنا الباب إلى ضريح مغطى بالورد والزهر : هذا بقية الجهاد من النفس الطاهرة ، هذا ميراث الخلود من العزائم المريرة ، هنا صفحة من مجد الاسلام والعرب ، هنا حلقة يصلها النسب والمجد والتاريخ بسيد المرسلين وخاتم النبيين . غاية تتقطع دونها الأعناق ، ويعيا بمرامها كل سباق . أترى هذا المصحف على حافة الضريح ؟ هذا كتاب الله يشهد للسلف بما قدّم ، ويدعو الخلف الى أن يمضي قدماً على سنة الآباء وسنن المجد وهدى الاسلام . فيا بني العرب والاسلام احذروا غضب الله ، وسخط الآباء ، ولعنة التاريخ ، وسيروا بالراية إلى الغاية ، وتبوأوا مكانكم في جبهة الخطوب وصدر الأجيال

فانا أناس لا توسط بيننا ... لنا الصدر دون العالمين أو القبر

قرأنا صحائف المجد والعبر . ثم قرأنا الفاتحة وخرجنا نقول : رحم الله فيصلاً !

وفي اليوم الثاني شرُفنا بالمثول بين يدي جلالة الملك الشاب غازي بن فيصل ! اقتربنا من الحجرة الملكية فرأينا جلالته واقفاً ، فلما ولجنا الباب تقدم الينا فحيانا تحية العربي الكريم ضيفانه ، وتلقانا كما يتلقى الأخ العظيم إخوانه . وجلسنا فسألنا كيف صحة جلالة مصر ، وسألنا عما رأينا في سفرنا وما لقينا في حلنا وترحالنا ، وكيف رأينا تقدم العراق بعد زورتنا الأولى ، ثم تحدث أحاديث ملؤها الأمل والطموح في مستقبل العراق والعرب والاسلام . قلنا وإنا لندعو الله أن ييسر للملك الهاشمي العظيم السير على سنن آبائه ، ويرعاه قرة عين للعرب والمسلمين . ثم خرجنا فرحين مغتبطين ، فقلنا قد رأينا في فيصل صفحات من مجد الأمس ! وهذه صفحات من مجد الغد

نبني كما كانت أوائلنا ... تبني ونفعل مثل ما فعلوا

فصدّق اللهم آمالنا ، ومهّد لنا طريقنا ، ويسر لنا غايتنا .

وزرنا مسجد الامام أبي حنيفة والمدرسة الأعظمية ودار الكتب . وزارنا في الفندق كثير من إخواننا البغداديين ، وتنافسوا في دعوتنا إلى ضيافتهم ، ولكن ضاق الوقت عن اجابة الدعوات ، إلا دعوتين سبقتا قبل سفرنا إلى طهران من الأستاذ الفاضل أبي خلدون ساطع بك الحصري مدير كلية الحقوق ، والأديب الهمام رفائيل بطي مدير جريدة البلاد ، فذهبنا إلى حفلتين نعمنا فيهما بلقاء جمع من زعماء العراق وعلمائه وأدبائه ، وسعدنا بأحاديث في الاخوة والمودة ، والسياسة والعلم والأدب

وفي اليوم الأخير كانت حفلة الوداع في دار المفوضية المصرية ، إذ دعا الأستاذ حافظ بك عامر القائم بأعمال المفوضية جمعاً من أعيان بغداد ، ومن المستشرقين الذين رافقونا في حفلات الفردوسي ، وسفير إيران ببغداد وغيرهم إلى مأدبة شاي ، ولم تكن هذه أول حفاوة حافظ بك والأخ حسين افندي منصور سكرتير المفوضية

وبرحنا بغداد بكرة يوم الاثنين في سيارة جديدة من سيارات شركة (نيرن) ذات عشر عجلات طولها ٢٥ متراً ، وهي نمط جديد مركب من جزأين : القاطرة والعربة . وقد أريد بفصل المقدم من سائر العربة إضعاف الارتجاج ، فالسيارة تسير رهواً في الطريق غير المبلطة . وقفنا قليلاً في الرمادي ، فرأينا سيارة كبيرة تقل نفراً من الانكليز ، فيهم أطفال ونساء ، وقد كتب عليها ما يدل على أنها سائرة من الهند إلى لندرة ، سألت بعضهم متى فصلتم من الهند ؟ قال : منذ شهر . قلت : ومتى تبلغون لندرة ؟ قال : بعد شهر ونصف ، لأننا سنتلبث في القسطنطينية وبعض البلاد . فهانت علينا الشقة بين طوس والقاهرة ، وأكبرنا هذه العزائم السيارة

بعيد مناط الهم فالغرب مشرق ... إذا مارمى عينيه والشرق مغرب

وبلغنا الرطبة بعد الغروب فلبثنا ساعتين ، جلسنا في فندق هناك نستمع إلى الغناء المصري ، ونأكل ما تيسر من الزاد . ثم مشينا في أطراف الصحراء فرأينا مجرى وادي حوران الذي يسيل من حوران إلى وادي الفرات ، ولم يكن به يومئذ ماء ، ورأينا هناك آبارا يستقي منها الأعراب الضاربون في تلك النواحي

وقد جاء الينا أطفال الأعراب ، فسألهم أحد الرفاق عن أسمائهم فلم يجيبوا ، فقلت إن ابن البادية يتحرز من ذكر اسمه واسم قبيلته حتى يأنس ، فلما استأنسناهم بالحديث والعطاء صرحوا بالأسماء

طلعت الشمس ونحن فى أرباض دمشق ، فدخلناها فى نضرة الصباح ، وأشعة الشمس تموج على ذوائب الغوطة الفيحاء ، وما دخلت دمشق قط إلا خفق قلبي لها سروراً وحباً

أوينا إلى فندق أميّة يحببه الينا هـذا الاسم العربى ، ولبثنا به يومين ، ووجدنا خدام المائدة هناك من النوبيين فرحبوا بنا وبالغوا فى اكرامنا

وهنا لطيفة أضنّ بها على الترك : جلست أنا ورفيق الأستاذ العبادى للأفطار ، فلما قدمت الينا ألوان الطعام طاف بنا طائف من الشعر ، فقال الأستاذ :

وقوم فى أميـــة نازلينا من العسل المصفى يشربونا

فقلت :

ولو علموا مكانتهم لكانوا بصحن بنى أمية ينزلونا

قال ما صحن بني أمية ؟ قلت صحن الجامع الأموى . قال إن النزول به شرف . قلت هذا أردت . والله أعلم بذات الصدور

بادرنا بعد أن استرحنا إلى زيارة أستاذنا العلامة محمد كردعلى بك كما فعلنا حينما وردنا المدينة فى طريقنا إلى طهران ، ومن فاته مجلس الأستاذ كردعلى فى داره المعمورة فقد فاته خير كثير . وكنا نعمنا المرة الأولى بليلة غوطية قمراء سمرنا بها مع الأستاذ والأمير مصطفى الشهابى والأستاذ خليل مردم وهم كما قال الحريرى

« فى رفقة غـذوا بلبان البيان ، وسحبوا على سحبان ذيل النسيان ، ما فيهم إلا من يحفظ عنه ولا يتحفظ منـه ، ويميل الرفيق اليه ولا يميل عنه »

ويوم الأربعاء زرنا الجامعة السورية ، فاذا كلية الآداب قد ألغيت . ولقينا الأستاذ مدير الجـامعة ، فطاف بنا فى حجرات الكيمياء والطب ، ثم دعانا الى غرفته فتحدثنا فى الاصطلاحات العلمية وتوحيدها فى البـــلاد العربية ، ثم خرجنا شاكرين . وذهبنا إلى المتحف العربى لنرى الأمير جعفرا الجزائرى فاذا المتحف مغلق ، وإذا المكتبة التى أمامه مغلقة

وهنا أقول إن دار المتحف العربى هى دار المدرسة العادلية لا دار الحديث الأشرفية ، كما ذكرت خطأ فى حديثى عن الشيخ الخالدى ، وأنا أعـترف بأن الغلط كان مني لا من الشيخ ، وأنه نبهني اليه حينما قرأ المقال وهو بمصر . (وهذا لا يقل من شكرى للأديب برهان الدين محمد الداغستانى الذى نبـه الى هذا الغلط فى مقال بمجلة الرسالة)

وفى المساء ذهبنا الى الصالحية فزرنا قبر الشيخ عبـد الغنى النابلسى ولم نكن زرناه ، فوقفت بنا السيارة على حارة هناك فترجلنا ومشينا بجانب بناء قديم مهجور فقيل : هذه المدرسة العمرية التى بناها أبو عمر بن قدامة . وفى هذا الحيّ مدارس كثيرة كانت مباءة العلم والعلماء فى العصـور الخالية . وتقدمنا قليلاً ثم ملنا ذات اليسار ، فهبطنا مسجداً صغيراً مشرفاً على دمشق . ثم ولجنا باباً إلى اليمين فاذا مصـلى واسع ، فلما اتجهنا شطر القبـلة رأينا فى الجدار الذى إلى اليسار مقصورتين عليهما شبابيك الحديد أحداهما مرقد الشيخ الصوفى العالم المتفنّن عبد الغني النابلسى ، والأخرى قبر أحد أبنائه فيما أذكر

وقد رأيت على باب المصلى الذى فيه الضريح هذين البيتين :

زان سورية الوزير نظيف بنظام يفوق عقداً نظيما
لقام الولى عبـد الغنى مذ شاد أرخت « نال أجراً عظيما »

ومعنى ذلك أن والى سورية نظيف باشا عمر هـذا المكان سنة ١٣٠٦ ثم ذهبنا إلى دار العالم الفاضل الأمير مصطفى الشهابى إجابة لدعوته ، وهى فى أعلى الصالحية تشرف على دمشق كلها . فتعشينا وسمرنا مع جماعة من الفضلاء ، ثم هبطنا بعد هدأة من الليل فمشينا إلى الفندق ، وسار معنا الاخوان مودعين فختمت إقامتنا بدمشق على أحسن ذكرى

وأصبحنا نتأهب للسير إلى بيروت فبلغناها ظهراً . وذهبنا إلى دار القنصلية المصرية فلقينا حضرة القنصـل صادق بك أبو خضره فأبى إلا أن يدعونا للغداء ، ثم ودعناه بعد الغداء شاكرين فسرنا فى أرجاء المدينة ، فلما أرست الباخرة الرومانية « شارل الأول » ضمنا أمتعتنا بها ثم نزلنا فجلنا جولة فى المدينة ورجعنا اليها والساعة إحدى عشرة ، وفى منتصف الليل سارت الباخرة ، فلما أصبحنا بها رأينا أسباط بني اسرائيل مزدحمين فى أرجائها ، وقد راجت سوق اللابس بينهم ، هذا يعرض وهذا يساوم ، وهذا يشترى وهذا يأبى . فقلنا لله در القوم !

وقفت الباخرة على حيفا صبحاً ، وقد صارت حيفا ميناء

كبيراً منذ العام الماضي ، فنزلنا إلى المدينة وصعدنا في جبل الكرمل وهو جبل عال مزدان بالدور والأشجار مشرف على البحر . ومررنا بقبر الباب صاحب الدعوة البابية ، وقبر عبد البهاء عباس أفندي زعيم البهائيين السابق . وهما في بناء جميل تحيط به حديقة منضدة ينحدر الجبل عنها طبقة بعد أخرى حتى يفضي إلى شارع واسع يستقيم من سفح الجبل إلى البحر

وسارت السفينة بالعشي فما زالت في بحر رهو حتى أقبلت على الإسكندرية المحبوبة قبيل الظهر يوم السبت ثالث نوفمبر . خفقت قلوبنا فرحاً بالأوبة إلى الوطن ، وقذيت عيوننا بالمرائي الأجنبية المتزاحمة في الثغر ، وزادها قذى منظر زورق الشرطة تعلوه راية كتب عليها من الجانبين Police كأن البلد لا يعرف اللغة العربية ! وبينما تكفهر حولنا هذه المناظر المخزية وقع بصري على كلمة « زمزم » الكلمة العربية الوحيدة في مئات الأسماء المحيطة بنا ، وهذه زمزم إحدى بواخر بنك مصر ! هذا كوكب يلوح في هذا الظلام الدامس! هذا برق من الرجاء يشق هذا الليل اليائس ! هذه فاتحة المستقبل الوضاء ! فاصبري أيتها النفس فان مع العسر يسرا

خاتمة

لم يتيسر لنا المقام في إيران حتى نعرف من أحوالها ودخائلها وسير العلم والأدب بها ، وحتى نستقصي آثارها ومشاهدها ، وإنما هو السفر العجلان الذي لا يقف ببلد إلا ليسير عنه . فهذه المقالات جهد النظرة العاجلة ، ومبلغ الأيام القليلة التي قضيناها طائرين من مدينة إلى أخرى ، ومقدار ما وعت الذاكرة دون الاستعانة بالمذكرات ، وهو كما رأى القارئ كلام قريب الغور ، قليل الجدوى ، ولكنه لا يخلو من فائدة

وبعد ، فقد سرنا من القاهرة إلى طوس فما أحسسنا أنا اغتربنا ، بل رأينا أنفسنا بين وجوه معروفة ، وسنن مألوفة ، وتاريخ معلوم ، وفي مشاهد حدثتنا عنها كتبنا ، وعهدها تاريخنا ونشأ فيها علماؤنا ، فالعالم الاسلامي ، على اختلاف الأمم ، أمة واحدة ألفتها مئات السنين على معنى واحد ، وأسلوب واحد ، وأورثتها التاريخ حضارة واحدة ، وآداباً متقاربة ، وهذا ذخر لعمر الحق جدير أن يصان على رغم الزمان ، وائتلاف ينبغي أن يجتنب الاختلاف ، وتقارب هو أسعد ما تحظى به الأمم في هذه العصور القلقة المضطربة . فقل للذين يريدون أن يقطعوا الأوصال بما يثيرون من الجدال ، وقل للذين يحقرون ماضينا ، ويردرون تاريخنا ، ويحاولون أن يهدموا كل قديم ليشيدوا كل حديث ، وقل للذين يصدون عن الشرق ليولوا وجوههم شطر الغرب : ألا ساء ما تعملون ! لقد أعماكم التقليد عن الحق ، وذهب بكم الضلال أبعد مذهب . فان تمادتم في الغواية فستندمون حين لا ينفع الندم والسلام

عبد الوهاب عزام

٤٠٢٥

لن تكون غريباً في ثيابك

اذا ارتديت من صنع بلادك

شركة مصر للغزل والنسج

مصانعها بالمحلة الكبرى

تنتج لكم

أفخر أنواع الأقمشة

المصنوعة بأيد مصرية من القطن المصري

بفته — دبلان — كستور — زفير — كزمير — جبردين

تيل للمراتب — ملايات للسرير — أقمشة للمرايل — فوط

ومفارش للسفرة — بشاكير — برانس — جوارب

فنلات — قطن طبي — أربطة جراحية — دوبار — أحبال

اطلبوا مصنوعات الشركة من كل مكان . . .